المحاضرة الرابعة: كتاب" نقد الشعر "لقدامة بن جعفر.

1- الشعر عند قدامة بن جعفر:

إنّ أول ما افتتح به قدامة بن جعفر (ت:337هـ) مشروعه هو وضع تعريف للشعر يحدّه، ويميزه عن باقي فنون القول الأخرى فيقول: " وليس يوجد في العبارة عن ذلك أبلغ ولا أوجز .... مع تمام الدلالة من أن يُقال فيه: إنّه قول موزون مقفى يدل على معنى" [i] وهذا التعريف يحصر حد الشعر في مجموعة من الأجزاء المكونة لماهية الشعر، فهو إذا " لا ينطوي على أي تحديد للقيمة، ولا يميز أن نسميه (الشعر الحق) عمّا ليس كذلك"[ii]

وبعد هذا التعريف يشرع قدامة في التفصيل، وشرح عناصر الشعر بقوله: "فقولنا: قول: دال على أصل الكلام الذي هو بمنزلة الجنس للشعر، وقولنا: موزون يفصله ممّا ليس بموزون، إذا كان من القول موزون وغير موزون، وقولنا مقفًى: فصل بين ماله من الكلام الموزون قواف، وبين مالا قوافي له ولا مقاطع، وقولنا: يدل على معنى: يفصل ما جرى من القول على قافية ووزن مع دلالة على معنى ممّا جرى على ذلك من غير دلالة على معنى"[iii]

2- حد الشعر:

العناصر الثلاثة الأولى لحد الشعر واضحة في الشكل، أما المراد من المعنى فإنه يبقى مبهما غير واضح، لأن تعريفه وفق هذا اطرح:"ينصرف إلى النظم أكثر مما ينصرف إلى الشعر، وفرق كبير بين النظم الذي هو رصف للكلمات على وزن واحد وروي واحد كما هو حال المنظومات العلمية، وبين الشعر الذي هو تعبير عن الوجدان وتصوير للمشاعر" [iv] وهذا معناه أنه يمكننا أن نقع على كلام موزون مقفى ودال على معنى، دون أن يكون معدودا من الشعر، لأنّه يقتصر على معانيه العلمية فقط.

إنّ الأسباب المفردات التي تحد الشعر وتشكل جوهر في تعريف قدامة لها ائتلافات تقوم فيما بينها وينتج عنها أمور أخرى، مثلما هو الحال بالنسبة لكل مجتمع على عدة أمور يقول قدامة في هذا الشأن: "إنه لما كانت الأسباب

المفردات التي يحيط بها حد الشعر على ما قدمنا القول فيه أربعة، وهي: اللفظ والمعنى، الوزن والتقفية، وجب – بحسب هذا العدد – أن يكون لها ستة أضرب من التأليف" [v]

إلا أنه يعود ويستدرك بالقول:" إلا أني وجدت للفظ والمعنى والوزن تأتلف، ويحدث من ائتلاف بعضها إلى بعض معان يُتكلم فيها، ولم أجد للقافية مع واحد من سائر الأسباب الأخرى ائتلافا...إلا أني نظرت فيها فوجدتها، من جهة ما، أنها تدل على معنى لذلك المعنى الذي تدل عليه مع سائر البيت" [vi]

وهذا يعني أن دلالة القافية كعنصر مستقل يجعل لها ائتلافا مع دلالة البيت ككل بما فيها القافية نفسها وأما مع غيرها فلا، ويعلل قدامة رأيه هذا بالقول: "لأن القافية هي لفظة مثل سائر البيت من الشعر، ولها دلالة على معنى كما لذلك اللفظ أيضا، والوزن شيء واقع على جميع لفظ الشعر أيضا الدال على معنى" [vii]

3- ميزان الجودة والرداءة في الشعر:

إن للصفات الثمانية التي استقاها قدامة من حد الشعر أحوالا موقع استحسان وأخر موقع استهجان تقع فيها وقد أشار إلى وضوح ذلك على الشعرى، الذي لا يخرج شيء منه عنها، وقد بدأ ذلك "بذكر أوصاف الجودة في واحد منها، ليكون مجموع ذلك إذا اجتمع للشعر كان في نهاية الجودة" [viii]

ثم أعقب ذلك إذا اجتمع فيذلك "بذكر العيوب ليكون مجموع الشعر كان نهاية في الرداءة"[ix] وأما إن كان الشعر يتراوح بين النعوت والعيوب " وجب أن تكون الوسائط التي بين المدح والذم تشتمل على صفات محمودة وصفات مذمومة، فما كان فيه من النعوت أكثر كان إلى الجودة أميل، وما كان فيه من العيوب أكثر كان إلى الرداءة أقرب، وما تكافأت فيه النعوت والعيوب كان وسطا بين المدح والذم[x]"، وبهذا يكون قدامة قد وضع مقياسا للشعر بدرجات متفاوتة يصنف وفقها الشعر بمعياري الجودة والرداءة.

الحواشي:

[i] – قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق: كمال مصطفى، ط3، القاهرة، مكتبة الخانجي للطبع والنشر والتوزيع، د.ت، ص:17

[ii] – جابر عصفور، مفهوم الشعر– دارسات في التراث النقدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط5، مصر، 1995، ص:93.

[iii] – قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص 17.

[iv] – ابتسام مرهون الصفّار، ناصر الحلاوي، محاضرات في تاريخ النقد عند العرب، د.ط، عمّان، الأردن، جهينة للنشر والتوزيع، 2006م، ص292.

[v] – قدامة بن جعفر: نقد الشعر، ص25.

[vi] – المصدر نفسه: ص25.

[vii] – المصدر نفسه: ص25.

[viii] – قدامة بن جعفر، النقد الأدبي، ص:26.

[ix] – المصدر نفسه: ص26.

[x] – المصدر نفسه: ص26–27.